مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(١ تيموثاوس ٤:٩-١٥)

يا إخوةُ صادقةٌ هي الكلمةُ وجديرةٌ بكُلِّ قَبول* فإنَّا لهذا نتعبُ ونُعيَّر لأنَّا ألقينا رجاءَنا على اللهِ الحيِّ الذي هو مخلِّصُ الناسِ أجمعين ولا سيَّما المؤمنين* فوصِّ بهذا وعلِّمْ به* لا يستَهِنْ أحدٌ بفتوَّتِكَ بل كُنْ مثالاً للمؤمنينَ في الكلامِ والتصرُّفِ والمحبَّةِ والإيمانِ والعفاف* واظِبْ على القراءةِ إلى حينِ قدومي وعلى الوعظِ والتعليم* ولا تُهمِلِ الموهِبَةَ التي فيك التي أُوتيتَها بنبوَّةٍ بوضعِ أيدي الكهنة* تأمَّلْ في ذلك وكُنْ عليهِ عاكفاً ليكونَ تقدُّمكَ ظاهراً في كلِّ شيءٍ.

الإنجيل

(لوقا ١٩: ١-١٠)

في ذلك الزمان فيما يسوع مجتازٌ في أريحا إذا برجُلٍ اسمُهُ زكّا كان رئيساً على العشَّارين وكان غنيًّا* وكان يلتمِسُ أن يرى يسوعَ مَن هو فلم يكن يستطيعُ من

زكا العشار

ينفرد إنجيل لوقا بسرد قصة زكا العشار التي تُتلى علينا في هذا اليوم، وفي القصة تعزيز جديد لمفهوم التوبة الذي يحبّه الإنجيلي كثيراً. في السياق الإنجيلي يسبق اللقاء مع زكا حادثة شفاء الأعمى الذي «كان جالساً على الطريق يستعطي» (لو ١٨:٣٥). في الحادثتين ثمّة من يشتهي من يدي السيد شفاءً، إن في الجسد كما عند الأعمى، أو في الروح كما عند زكا، وفي الحالتين الشافي واحد. فرادة قصة زكا، الذي نال أكثر مما طلب، أنها تحكي قوة وعمق التغيير الذي يحدثه المخلّص في الذين يشتهونه بحق.

يبدأ نصنا الإنجيلي بالرب يسوع «مجتازاً» في أريحا، أي متنقلاً في أحيائها، دونما عجل، ناشراً بركة كلماته والآيات، مقبلاً إلى من هم بحاجة إليه ليطلب و«ليخلص ما قد هلك» (مت ١٨:١١). مدينة أريحا كانت الأكبر والأبرز في اليهودية بعد أورشليم، لها أنشطة تجارية ضخمة مع الممالك المجاورة، وفيها مال كثير. وزكا الذي كان رئيس عشاريها هو بالتالي رجل مشير ذو مكانة وجاه، ولعله ما كان جاهاً نظيفاً، فهذه كانت حال العشارين. حتى الآن، لا تدلنا القراءة إلى أن الرجل كان مهيأً لملكوت الله، لكنه «طلب أن يرى يسوع». رغبته هذه فتحت باب خلاصه. الرب هنا يقتحم مأساتنا ويُسقط قيودنا وتبقى بينه وبيننا حدود إرادتنا. الله هنا، وأنت عليك أن تُقدِم. «من يسمعْ فليَقُلْ تعالَ، ومن يعطَشْ فليأتِ، ومَن يُرِدْ فليأخُذْ ماء حياةٍ مجاناً»، يقول السيد الرب (رؤيا ٢٢:١٧).

العدد ٢٠٠٧/٣
الأحد ٢١ كانون الثاني
تذكار أبينا البار مكسيموس المعترف والقديس الشهيد ناوفيطوس
اللحن السابع
إنجيل السَحَرْ العاشر

لم يقدر زكا أن يرى السيد مجتازاً أولاً بسبب الجموع وثانياً بسبب قصر قامته. يقول آباؤنا القديسون إن ذكر هذين العائقين يرمي إلى ما هو أبعد من مجرد التوصيف الروائي، إلى رمزية تخاطب المتأمل في الإنجيل في أينما أو وقتما كان. الإنسان منذ سقط بات عالقاً في «لا ترتيب» رغباته، تشابكها وفوضاها، ذلك لأن نعمة التمييز التي هي من المواهب الإلهية الأصل أضاعها الإنسان لما انفصل عن اتصاله بالله. الرغبة الأسمى، رغبة الالتقاء بالمخلّص، ستبقى ضائعة في فوضى الرغبات السطحية (والمسطّحة) ما لم تعلّيها عن هذه، الإرادة والجهاد.

الجمع لأنَّهُ كان قصيرَ القامة* فتقدَّمَ مسرعاً وصعدَ إلى جمَّيزة ليَنْظُرَهُ لأنَّهُ كان مُزمِعاً أن يجتازَ بها* فلمَّا انتهى يسوعُ إلى الموضع رفعَ طَرْفَهُ فرآهُ فقال لهُ يا زكَّا أسرِع انزِلْ فاليومَ ينبغي لي أن أمكُثَ في بيتك* فأسرعَ ونزَلَ وقَبِلهُ فرِحاً* فلمَّا رأى الجميعُ ذلك تذمَّروا قائلين إنَّهُ دخلَ ليحُلَّ عند رجلٍ خاطئ* فوقف زكَّا وقال ليسوعَ هاءَنذا يا ربُّ أُعطي المساكينَ نِصْفَ أموالي. وإن كنتُ قد غَبَنْتُ أحداً في شيءٍ أَرُدُّ أربعةَ أضعافٍ* فقال لهُ يسوعُ اليومَ قد حصلَ الخلاصُ لهذا البيتِ لأنَّهُ هو أيضاً ابنُ إبرهيم* لأنَّ ابنَ البشرِ إنَّما أتى ليَطلُبَ ويُخلِّصَ ما قد هلك.

تأمل

يا له من عشق إلهي! يا لها من شهوة مباركة! يا له من عشق مجنّح بالذهب أو بالأحرى بالمسيح الذي يُصعد إلى السماء كل نفس تشتهيه. إن العشق الإلهي الذي رفع زكا عن الأرض دفعه ليصعد على الشجرة. لم يَدَعْهُ يتطلّع بعد ذلك إلى أمور الأرض ولا أن يخالط البشر. إن المحبة الإلهية هي التي أدارت أنظاره إلى الخيرات السماوية. فهو يركض من الأرضيات إلى السماويات فيرتفع على الشجرة ويشاهد المسيح من

ننتقل إلى قصر القامة. ماذا صنع زكا في حياته من أعمال بر وإيمان لكي تنمو قامة روحه فيتأهل للقاء السيد؟ القديس أمبروسيوس أسقف ميلان يقابل بين زكا ويوحنا المعمدان الذي ما رأى يسوع الإنسان وحسب، بل رآه في ملء لاهوته ابناً حبيباً للآب، وأحد الثالوث الكلّي قدسه. هل كان المعمدان أطول من زكا قامةً، بالجسد، فقُدِّر له أن يرى؟ أم أن القصر المقصود هنا هو قصر قامة الروح وقصور المواهب عند العالقين في رغبات الأرض وهموم اللحظة، بلا حكمة ولا تمييز؟

قلنا إن زكا اشتهى أن يرى يسوع فكانت فاتحة خلاصه. إذ ذاك أقدم فتسلّق الجميزة الباسقة بأغصانها العالية والقريبة من الأرض بأغصانها السفلى. أقرن رغبته بالفعل، وإن كان هذا الفعل قد يعرّضه للهُزء من قِبَل الآخرين. الأساس أنه حمل رغبته السامية وارتقى بها فوق ما سميناه قبلاً فوضى الرغبات. كالعادة أتى فعل الرب يسوع سبّاقاً فرأى زكا قبل أن يراه زكا نفسه. آباؤنا القديسون رأوا في زكا على الجميزة ثمراً جديداً، رمزاً لثمار الخلاص الوافرة لا سيما وأن الرب يسوع ما أتى إلى الأرض ليزرع بزراً ويجني ثمراً، بل ليزرع في إنسانيتنا بزرة لاهوته فيحصد بشراً بنعمته مخلّصين.

«يا زكا أسرع وانزل». ناداه السيد باسمه لأنه عرفه. وكما كان سبّاقاً فرآه، ناداه باسمه لأنه هو الراعي الصالح الذي يعرف خرافه ويدعوها «بأسماء ويخرجها» (يو ١٠: ٤). ومن هم خرافه؟ هم الذين يطلبونه في قلوبهم، بصدق، وبالتالي يقبلونه راعياً. «ينبغي أن أمكث اليوم في بيتك». السيد سبّاق من جديد. مرة جديدة نرى السائل ينال أكثر مما اشتهى حتى أن يتمنى. لم يدعُه زكا إلى بيته، بالأحرى لم يُتح له ذلك، لأن السيد بادره بقوة، بالـ«ينبغي» وبالـ«أمكث». القوة في «ينبغي» تكمن في أنها تحكي تدبير الرب الخلاصي الحاصل في تجسده، وكأنها تعني «هذه مهمتي، من أجل هذا (خلاصك) أنا أتيت». قوة الـ«ينبغي» هي أيضاً قوة الحب الذي هو عند السيد لنا. هذه القوة (الحب) التي دفعت بالإله الذي «كلُّ شيءٍ به كان وبغيرهِ لم يكُنْ شيءٌ مِمَّا كان» (يو ١: ٣) إلى النزول من سموات مجده إلى أعماق مأساتنا، حاملاً كلّيتها في ذاته. أما الـ«أمكث» فلأن الرب لا يجتاز بمريديه عابراً بل هو أتى «ليمكث» عندهم. الرب مقيم في من يؤمن به ويحفظ له في كيانه مقاماً.

هل كان ممكناً، بعد كل هذا، أن لا ينزل زكا إلى يسوع بسرعة وفرح؟ لا يمكن لمن يلتقي رحمة الله أن لا يقبلها بفرح عظيم، وهي، إن كان بحق مؤمناً، ذروة مشتهاه. المؤمن الحقّيقي يفرح بالصلاة لأنه يعي أنه يجالس الله، الذي سوف يجلس إليه في اليوم الأخير الأبرارُ والصدّيقون. الذين يؤمنون بالله يفرحون ملء الفرح أمام الكأس المقدّسة، لأنهم يعون أنهم سوف يحوون، بتناولهم الجسد والدم الأطهرين، الضابط الخليقة كلها والذي لا تحويه أرض ولا سماء. إنها فرحة التائب الذي وإن كان عارفاً بإثمه يهرع إلى الله، لأنه يثق بفيض رحمته.

الناس تذمّروا من زكا «الخاطئ»، ومن يسوع إذ أتى ليبيت عنده، لا لأنهم ليسوا هم أنفسهم خطأة، بل

هناك وهو بالذهن جالس على السحب. وعندما رأى زكا الرب قال له بما يليق به: إني رفعت عينيّ إليك يا ساكن السماء. رأى زكا الرب وازداد فرحه. لقد مسّ قلبه فأصبح إنساناً آخر. من عشار تحوّل إلى غيور، من ملحد إلى مؤمن، من ذئب إلى خروف مُعَدّ للذبح. مَن الذي يشعر بمثل هذا الشوق لأبيه ولأمه؟ مَن الذي يحب إمرأته أو أولاده كما أحب زكا الرب؟ لقد وزّع أمواله على الفقراء وأعطى الذين ظلمهم أربعة أضعاف.

يا له من تصرّف يليق بالتلميذ الصالح، يا لها من قوّة إلهية: إن رؤية يسوع وحدَها قادته إلى الفعل. لم يعطِ الرب لزكا أي تعليم. حضر أمامه فاجتذب الإيمانُ قلبه إلى الذي كان يشتاق إليه. لقد حصل أمر مشابه لنازفة الدم. اقتربت من الرب وطلبت منه الشفاء. لم يقبل أن تلمسه بيدها فجاءت خفية ولمست هدب ثوبه فجذبتها قوة الشفاء من اللمس كالاسفنجة. لم يكن زكا يدرك ماذا يفعل اذ انه كان مسوقاً بالغيرة الإلهية، ملتهباً بالعشق الإلهي الروحي فصعد على الجميّزة. لكن الرب كشف له سراً وطلب منه أن ينزل. عرف أعماق نفسه. عرف شوقه المقدّس. انزلْ! تذكر آدم الذي عندما شعر بعريه اختبأ وراء شجرة التين. وأنت الذي تريد الخلاص لا تصعد على

لأنهم ليسوا تائبين. هذا هو الفرق، ولعله الوحيد، بينهم وبين زكا. لا بل أكثر من ذلك، يروي لنا الإنجيلي بفم زكا أن هذا ما كان غنياً قاسي القلب يجمع ولا يعطي، وما كان متنكراً للشريعة. فهو في عطائه المادي وفي تعويضاته يفوق ما أمر به الشرع الموسوي، وحتى أحكام القانون المدني الروماني السائد آنذاك. هم يتذمرون لأن خلاص هذا الإنسان لا يعنيهم، لأن المحبة كما أوصى بها الله لا تعنيهم. الرب يسوع لا يقرف من مجالسة خاطئ تائب، لأن الطبيب لا يقرف من جروح مريضه. الرب يسوع يعنيه خلاص هذا الإنسان، لأنه من أجل هذا أتى، والخلاص نفسه متاح للمتذمرين أيضاً، فقط إن هم تابوا وأحبّوا.

«اليوم حصل خلاص لهذا البيت»، يقول الرب يسوع. هذا الإنسان الذي «هو أيضاً ابن إبرهيم»، لما اشتهى التقاء المخلّص أعلن انتماءه إلى سلالة المؤمنين، نسل إبرهيم. وإذا أردنا تعبيراً أبسط نقول كأنه تقدّم بطلب الانتماء إلى هوية المؤمنين، فقُبِل طلبُه لما ناداه السيد باسمه. ولما دخل بيته وجلس إلى مائدته منح الرب يسوع زكا الهوية وأعلنها للملء بسلطان (للمقارنة: هذا ما يحدث معنا إذ بعد أن نعتمد ندخل إلى الكنيسة ونشترك في مائدة الرب). اليوم حصل الخلاص لزكا لأنه رغب فأقدم، فكان له أكثر مما طلب بكثير. في الأساس طلب علاجاً موضعياً، أن يرى السيد، فكان له الشفاء التام، أن يمكث السيد عنده. وكأننا بالسيد يقول للمتذمرين خارجاً «ما طهَّرَهُ اللهُ لا تُدَنِّسهُ أنت»، كما جزم للقديس بطرس في رؤياه (أع ١٥:١٠).

الإعتراف والأبوّة الروحية

يجهل قسمٌ من المسيحيين أهميَّة سر الإعتراف في حياة المؤمنين والكنيسة ويذهب البعض إلى حدّ القول إنّه لا وجود لسر الإعتراف في الكنيسة الأرثوذكسية وأن الإنسان ليس بحاجة للكاهن كي تُغفر خطاياه.

الواقع المؤلم أن نسبة قليلة من المؤمنين في مجتمعنا تمارس سر التوبة والإعتراف وتختبر حياة البنوة الروحية وذلك يعود إلى أسباب كثيرة تتعلّق بالمؤمنين وبالكهنة. فالكاهن يتوجب عليه أن يحض المؤمنين على التوبة وممارسة سر الإعتراف وأن يكرّس وقتاً لهذا الأمر، كذلك من المفترض أن يكون الراعي قدوة للخراف فلا يهمل بدوره خلاصه هو وذلك حين يعترف بخطاياه أمام أبيه الروحي.

أما المؤمن الذي غُفرت جميع خطاياه بالمعمودية وحصل على نعمة الروح القدس، فعليه أن يحافظ على هذه النعمة في حياته بابتعاده عن الخطايا والتصاقه بالله. لكن بما أن الإنسان ضعيف وينزلق بسهولة في الخطايا التي تبعده عن الله، وضعت الكنيسة سر التوبة والاعتراف لكي لا يفقد الإنسان خلاصه إن أخطأ بعد معموديته، بل يبقى له سبيل للعودة إلى الله.

ما هي التوبة وما هو الإعتراف؟ بحسب الأصل اليوناني كلمة توبة تعني «تغيير الذهن»، إذاً هي نمط حياة يحياه المؤمن حتى آخر لحظة من عمره ساعياً في كل لحظة أن يخلع الإنسان العتيق، إنسان الشهوات واللذات والرغبات الجسدية، وأن يلبس الإنسان الجديد الذي هو يسوع المسيح. هذا الجهاد اليومي للمحافظة على نعمة الروح التي

الجمّيزة. ينبغي لي أن أصيّرها يابسة وأزرع غيرها أي الصليب. تلك هي شجرة الصليب المباركة وعليك أن تقود قدميك إليها. تلك هي التي تقود مباشرة إلى السماء. بينما على هذه تشتبك الحية في الأوراق. فيها تختبئ وتولد صغارها. انزلْ بسرعة قبل أن تهمس الحيّة في نفسك كما فعلت مع حواء التي أغوتها لمذاقة اللذة الحلوة. انزل بسرعة طالما أنا قائم ههنا لأني عندما أنظر إليها ينشلّ عملها. أسرعْ إنزل لأنـــي لا أريـــد أن أدعك ضائعاً على الجميزة. أنت خروفي الضال وعنك أبحث. إنزل بسرعة وانتظرني في بيتك. ينبغي لي أن أستريح فيه. اني أستريح حيث يوجد إيمان. أذهبُ حيث المحبة. أنا عارف بما سوف تقوم به بعد قليل. أعرف انك سوف تعطي أموالك للفقراء وتعيد أربعة أضعاف إلى الذين ظلمتهم. على مثل هؤلاء الناس (مثلك) أنزل ضيفاً وأنا شاكر مسرور.

نزل زكا بسرعة وذهب إلى بيته واستقبل يسوع. امتلأ فرحاً «فوقف» لم يمش ولا جلس بل وقف ليظهر ثبات قراره. وقف وتكلّم مندفعاً إلى الجهاد بنفس حارة وقرار لا رجوع عنه. كان يعلم أين ينبغي له أن يبذر وأين يحصد. قال: إني أعطي المساكين نصف أموالي وأردّ أربعة أضعاف على الذين وشيت بهم» (لو ١٩:٨).

القديس يوحنا الذهبي الفم

نحصل عليها بالمعمودية يتطلّب يقظة دائمة لتجنّب الوقوع في مكائد الشيطان، كذلك يتطلّب تواضعاً ومثابرة لكي يتمكّن الإنسان أن يعترف بخطيئته وأن يجاهد لعدم تكرارها.

من هنا نفهم سر الإعتراف على أنه جزء لا يتجزأ من حياة التوبة. فالتوبة لا تكتمل من دون سر الإعتراف الذي أسَّسه الرب يسوع نفسه حين أرسل تلاميذه وقال لهم: «من غفرتُم خطاياهُ تُغفر له، ومَن أمسكتُم خطاياهُ أُمسِكت» (يو ٢٠: ٢٣). إذاً أعطى الرب يسوع سلطان حلّ وربط الخطايا لتلاميذه، والرسل بدورهم سلّموه للأساقفة والأساقفة للكهنة. وكان سر الإعتراف يتمّ في الكنيسة الأولى علناً أمام كل الجماعة وذلك لأن المؤمن المعتمد يصبح عضواً في جسد المسيح أي الكنيسة، وحين يخطئ يسيء إلى كل الجسد وليس فقط إلى نفسه. من هنا كان عليه أن يستغفر الجميع. أما اليوم فيتمّ سر الإعتراف بشكل شخصي أي بين المؤمن والكاهن (ممثلاً جماعة المؤمنين)، وفيه يكون الخاطئ إنساناً مريضاً بالخطيئة يحتاج إلى طبيب روحي يساعده لكي يستأصل أو يعالج مرضه، وهذه العلاقة تُسمَّى «الأبوَّة الروحية».

يقول القديس ثيودورس الستوديتي الذي نُعيِّد له في ١١ تشرين الثاني في حديثه عن الأب الروحي: «هل يسعنا أن نتوق إلى أكثر من أب حقيقي، إلى أب بالله؟». البنوَّة الروحية هي عملية يُدعى خلالها شخص ما، وهو الأب الروحي، إلى التعرّف على حياة شخص آخر، وهو الإبن الروحي، بما فيها الماضي والحاضر والمستقبل. وبعد فترة تطول أو تقصر، يضع الإبن ثقته بالأب، ويوافق الأب على وضع نفسه منذ ذلك الحين وفي كل حين في خدمته مرافقاً إيّاه في مسيرة حياته الإيمانية. هذه الأبوَّة الروحيّة تمّ التلميح إليها في العهد الجديد: «لأَنَّهُ وإِنْ كان لكم ربواتٌ من المُرشدينَ في المسيح لكن ليسَ آباءٌ كثيرون، لأَنّي أنا ولدتُكم في المسيح يسوعَ بالإنجيل» (١ كور ٤:١٥). الأب ليس فقط الذي يلد، بل هو الذي يحمل أثقال أبنائه على حسب قول الرسول بولس أيضاً: «مَنْ يضعُفُ وأنا لا أضعُفُ، مَن يعثُرُ وأنا لا ألتَهِبُ» (٢كور ١١:٢٩). هناك صورة رمزية توضح أهميَّة الإعتراف والأبوة الروحية مغزاها أن الإنسان يصله خيط بالله، وكلما يخطئ الإنسان ينقطع هذا الخيط فتكبر المسافة بينهما. ولكن حينما يتوب الإنسان ويعترف يربط الأب الروحي هذا الخيط مما يؤدي إلى تقصيره وتقصير المسافة بين المؤمن والله.

نختم بالقول إنه على كل مؤمن يهتم بخلاص نفسه أن يسعى جاهداً لكي يحيا حياة التوبة ممارساً سر الإعتراف، ولكي يجد أباً روحياً مختبراً يتابعه في كل حياته ويرشده إلى الخلاص شرط أن يطيعه الإبن الروحي كما يعلّم القديس أنطونيوس الكبير الذي نعيِّد له في السابع عشر من شهر كانون الثاني والذي يقول: «أعرف رهباناً سقطوا بعد أن تكبدوا الكثير من الأحزان وبلغوا كبرياء النفس إذ وضعوا رجاءهم على أعمالهم غافلين وصية من قال: سَلْ أباك وهو يعلّمك».

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb